التقاء الأدب بالفلسفة في رواية (فيلا الفصول الأربعة) لإبراهيم سعدي

Exploring the Fusion of Literature and Philosophy in Ibrahim Saadi's Novel: "The Villa of the Four Seasons"

نادية سلطان*

Nadia Soltane

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة.

جامعة باتنة 1 (الجزائر)

University of Batna 1 (Algeria)

nadia.soltane@unive-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2023/08/07	تاريخ القبول: 2023/10/04	تاريخ النشر: 2023/12/15

مُلخّص البحث

تلتقي الحقول فيما بينها، فيولد من ذلك الالتقاء جنس أدبي جديد يجمع بينها، ومن بين تلك الحقول التي تتخالل وتتضافر كلّ من الفلسفة والرواية، فنجد الروائي يتكئ على مقومات الحقل الفلسفي لينتج نصا يسمى بالرواية الفلسفية، حيث يعتمد على سرد تتفاعل معه النظريات الفلسفية تفاعلا إيجابيا، وهي المحطة التنظيرية التي ستقف عندها الورقة بحثا وتقصيا.

أمّا المحطّة الإجرائية فستختص برواية (فيلا الفصول الأربعة) التي ارتكزت على الفلسفة الغربية؛ وتحديدا الرومانية منها والمتمثلة في فلسفات إميل سيوران؛ كالوجودية والعدمية، ومن هذا المنطلق يمكن القول بأنّ الهدف من هذه الدراسة يتبدى في محاولة الكشف عن الفلسفات التي استند عليها إبراهيم سعدي في منجزه التخييلي؛ والوقوف عند انعكاسها على الخيط السردي.

الكلمات المفتاح: رواية معاصرة، فلسفة، إميل سيوران، فيلا الفصول الأربعة، إبراهيم سعدي.

Abstract :

This study examines the convergence of literature and philosophy in Ibrahim Saadi's novel, "The Villa of the Four Seasons." Through the intertwining of philosophical elements and narrative techniques, Saadi creates a compelling subgenre known as philosophical fiction, where narrative and philosophical theories interact harmoniously. Specifically, this research focuses on the novel's

* نادية سلطان: nadia.soltane@univ-batna.dz

foundation in Western philosophy, particularly Emile Cioran's existentialism and nihilism. The primary objective of this study is to delve into the underlying philosophies that serve as the inspiration for Ibrahim Saadi's work. By doing so, we aim to contribute to a deeper understanding of the profound influence of philosophical thought on contemporary fiction.

The focus of this research is on Ibrahim Saadi's novel "The Villa of the Four Seasons," which draws inspiration from Western philosophy, particularly Emile Cioran's existentialism and nihilism. The objective of this study is to explore and reveal the philosophical underpinnings that influenced Saadi's work. By examining the novel through this lens, we aim to gain a deeper understanding of the philosophical concepts that form the foundation of Saadi's narrative.

Keywords: Contemporary fiction, Philosophy, Emil Cioran, The Villa of the seasons, Ibrahim Saadi.

مقدمة:

تتراسل الحقول الفكرية فيما بينها تراسلا إيجابيًّا بنّاءً، وتلتقي التقاءً فاعلا ولّادا، ولعلّ أكثر تلك الحقول التي تتسلّل إلى غيرها من الحقول وتأخذ منها وتتقاطع معها؛ وتتأثر بلبناتها ومقوّماتها؛ حقل الأدب وتحديدا جنس الرواية، ذلك الجنس الفضفاض والمطّاط الذي ينفتح على كل الحقول وبالخصوص حقل الفلسفة التي تتيح للمبدع الروائي إمكانية تشييد كونه السردي بتجاوز محدودية التخصص عبر كتابة بينية عابرة للتخصصات.

وعليه فإنّ هذه الورقة الموسومة: (التقاء الأدب بالفلسفة في رواية (فيلا الفصول الأربعة) لإبراهيم سعدي) تسعى إلى الإجابة عن الإشكالات البحثية الموالية:

_ ما المقصود بالأدب الفلسفي؟ ثم كيف التقت رواية (فيلا الفصول الأربعة) بالفلسفة؟ وما النظريات الفلسفية التي انطلق منها إبراهيم سعدي وهو يهيكل مشهده الروائي؟

ولدراسة نقطة الالتقاء بين الروائي والفلسفي في خطاب (فيلا الفصول الأربعة) لا بد من الوقوف عند محطتين؛ تنظيرية تقف عند التجسير بين الحقلين – الرواية والفلسفة – وإجرائية تقف عند الخطاب الروائي نبشًا وحفرا لبلوغ أهم النظريات والمقومات الفلسفية التي تبناها إبراهيم سعدي في هيكلة عالمه.

وكل هذا لا يتحقق إلا باتباع منهج بحثي رصين من شأنه توجيه العمل لبلوغ النتائج المتوخاة بسلاسة، ويمكن القول إنّ المنهج التحليلي بأدواته وآلياته لمن أقدر المناهج البحثية التي تحتضن مثل هذه الإشكاليات البؤرية.

1/ التجسير بين الأدب والفلسفة:

يتخطّى الأدب صفاءه ليتلاقح ويمتزج بالفلسفة حدّ التماهي، ولدرجة يخال القارئ أنّ هذا المحكي الممزوج بالفلسفة نقي خالص، في حين أنّه متفاعل معه بشكل محكم من قبل روائي موسوعي أو مزدوج الثقافة؛ يجمع بين أزيد من حقل بسلاسة واقتدار، وفي العلاقة القائمة بين الحقلين يمكن القول: إنّ "العلاقة التي تشد الأدب إلى الفلسفة هي أكثر من علاقة مجاورة بين فرعين للمعرفة"[1]، بل هي علاقة تكامليّة إنتاجيّة؛ حيث يكتمل حقل الأدب بحقل الفلسفة ويسد ثغراته به، وينضج أكثر باسترفاد مقوماته ونظرياته، وصدق من قال: "الأدب كأدب... لا يوجد إلّا كمفهوم فلسفي"[2]. و"العلاقة بين الفلسفة والأدب علاقة وثقى نشهدها في التضمينات الفلسفية في الكثير من المنتجات الأدبية لبعض أعاظم الكُتّاب، ونعرف أنّ بعض الكتّاب كانوا فلاسفة محترفين"[3].

ولأنّ الأدب تعبير عن الحياة بكل مراحلها ومجرياتها ومشكلاتها كان لزاما الاتكاء على منسأة الفلسفة؛ ذلك أنّ "مفاهيم الفلسفة وقضاياها ورؤاها تضرب عمقًا"[4]، وهذا ما يحتاجه الأديب، ولهذا نجده يلجأ إليها كلما خانته رؤيته الأدبية أو أعجزته التيمة أو الفكرة التي يود طرحها؛ فنجدها – الفلسفة - تكاتفه وهي التي تصلح لكل زمان ومكان.

وفي علاقة الأدب بالفلسفة تطالعنا بصورة واضحة وجلية الرواية التي أقامت جسرا تواصليا بينها وبين الفلسفات الغربية منها على وجه التخصيص، والرواية "في علاقتها بالفلسفة لم تتوقف... عند تصويرها لحياة الفلاسفة أو ترديد مقولاتهم على ألسنة شخوصها أو تصوير أحداثها بمقولات الفلاسفة، وإنما باتت الرواية مجالا لتوظيفها في التعبير عن الرؤى الفلسفية، مكتسبة عمقها عبر ممارسات الروائيين للكشف عن رؤيتهم للوجود في أبعاده المختلفة"[5]، فغدت بذلك الرواية الفلسفية عبارة عن مشهد كوني يبحث عن حل للمشكلات الأنطولوجية؛ من خلال توظيف النظريات التي سبق إليها كبار الفلاسفة الغربيين وتضمينها في المحكي لتصبح جزءًا من بنائه.

2/ الروائي المتفلسف:

امتدت الأبعاد الفلسفية لتلامس تخصص الأدب بشقّيه؛ الشعري والنثري، فتتفتّقت عن ذلك القصيدة الفلسفية والرواية الفلسفية... وهكذا دواليك، وإنّه ليتعذّر على الروائي غير الطاعن في الفلسفة أن يتحاور مع العوالم الفلسفية وأن يتيح لنصوصه الروائية ومتونه التخييلية إمكانية تعاطيها، فالفلسفة علم قائم بذاته، بل هي أمّ العلوم على حدّ تعبير الأوّلين، لا يسع أيّ كاتب الخوض فيها من غير دراية، وحتى يخوض

المبدع الروائي في السرد الفلسفي عليه أن يكون من النخبة، ذلك أنّ "الأدب يمكن أن يُقرأ من قبل الكثيرين ذوي مشارب ومنازع شتى؛ أما الفلسفة فلا تُقرأ إلا من قبل نخبة قليلة إذا ما قورنت بقرّاء الأدب"[6].

وفي مسألة تفلسف الروائي، أو العلاقة الوطيدة بين الفيلسوف والأديب ذهبت ناتالي الخوري غريب إلى أنّه لا مناص من التأكيد على أنّه لا بد لـ "كاتب الرواية في الأساس... أن يكون قارئًا للفلسفة، قادرًا على تفكيك أنساقها وتذويبها في قالب روائي... ولا شكّ في أنّ الرواية الفلسفية غالبًا ما يتلقفها قارئ دينامي يتمتع بذات قابلة على إعادة تشكيل وعيها"[7].

هكذا إذًا خرج الأديب المبدع من جلبابه البياني الجمالي الأحادي إلى الامتزاج مع الحقل الفلسفي والانغماس في نظرياته التي أضحت مرجعية له ومنطلقا لأعماله وخطاباته، بل بات المستوى الإبداعي للكاتب يقاس بمدى ازدواجيته الفكرية، وبانفتاحه على باقي الحقول، ومدى تجاوب يراعه مع كل ما هو غير أدبي، فمُكنة الكاتب وقدرته تتبدى من خلال تطويع تلك الحقول وصبها في النص الأدبي بسلاسة واقتدار.

3/ أبعاد الفلسفة في المنجز التخييلي:

إنّ القارئ لمنجزات إبراهيم سعدي سيقف لا محالة عند أبعادها الغائرة في الفلسفة، ومن بين تلك التجارب الروائية (فيلا الفصول الأربعة) التي بناها وهيكلها على جملة من الفلسفات الغربية، ومن تلك الفلسفات ما نبسطه في النقاط الموالية:

3. 1/ الفلسفة الوجودية:

نستهل حديثنا عن الفلسفة الوجودية بتقديم تعريف مبسط لها، فهي حسب الدارسين والمنظرين "تيّار فلسفي واسع الانتشار يقوم على مبدأ الإعلاء من قيمة الإنسان وقد انتشر هذا المذهب في أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، ويرجع سبب تسمية الفلسفة الوجودية بهذا الاسم إلى أنّها كانت تهتم بالإجابة على الأسئلة الوجودية التي تتعلق ببداية الخلق ونهايته وبداية نشأة الأرض ونهايتها، ويؤكّد أتباع الفلسفة الوجودية أنّ الكائن البشري سواء كان عالماً أو فيلسوفًا أو إنسانًا عاديًّا، فإنه يبحث عن المعرفة اللامتناهية أو المطلقة وهو بالنهاية كائن بشري فقط ولن تتحقق له هذه المعرفة"[8]، ومن أتباع هذه الفلسفة الفيلسوف الروماني إميل سيوران، هذا الفيلسوف الذي يمكن عدّه مرجعية متينة، فالمتعارف عليه أنّ لكل كاتب مبدع مرجعية فكرية وفلسفية يرتكز عليها وينهل منها، ومن بين تلك المرجعيات والمناهل التي عاد إليها الروائي إبراهيم سعدي ناهلا ومسترفدا نجد الفلسفة الغربية، وتحديدا فلسفة إميل سيوران من خلال كتابه (مثالب الولادة) حيث استفرغه من فكرته المحورية وفلسفته البؤرية وصبّها في أثره الأدبي الروائي، وتتحدد هذه الفكرة الفلسفية في رفض فكرة الإنجاب، فالولادة هي النقطة الفارقة التي منها تبدأ رحلة الضياع وتنفلت فيها الهوية من يد الإنسان، وفي خطورة أن يولد الإنسان أو أن يساهم في مولد وقدوم كائن بشري إلى هذا الجحيم، يقول إميل سيوران: "اقترفت كل الجرائم، باستثناء أن أكون أبًا"[9].

والفلسفة السيورانية فلسفة لا دينية، وهو الرأي الذي ذهب إليه الروائي، والفكرة التي حاربها، وإن كان قد حمّل شخصية الهادي فوق ما تحتمل، وألبسها بردة فلسفية غربية لا تملؤها؛ إذ يقول فيه أقصد في الهادي: إنّه "صاحب نظرية يخجل منها الشيطان نفسه، القائلة بأن كل زواج إن هو إلا اتفاق بين المرأة والرجل على ارتكاب جريمة القتل، واحدة أو أكثر، يعني حسب ما يقرران إنجابه من أبناء وبنات مبرمجين للموت"[10]. وهذه الفلسفة هي النقيض للنص القرآني القائل: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[11].

وفي موضع مغاير اعترف الروائي بأنه استعار نظريته من الفيلسوف الخوائي العدمي إميل سيوران؛ تلك النظرية التي تبناها اللقيط الهادي، يقول على لسانه: "سيوران... لو كان يعرفني لقلت عنه بأنه سرق مني نظريته في سوءة أن يولد الإنسان"، وهي النقطة التي سيسهب فيها العنصر الموالي من الدراسة.

أخيرا وبعيدا عن هذه النظرية فإنّ الهادي اللقيط وجودي مثله مثل إميل سيوران، فكل واحد منهما يبحث عن الغاية من الولادات أو البدايات، فإميل بحث في الوجودية من خلال كتابه مثالب الولادة بعد محاورة مع والدته، حيث إنّه "قرّر... كتابة كتابه... بعد جملة قالتها له أمّه حين كان يتذمّر من هذه الحياة وقسوتها، فقالت له أمّه: "لو كنت علمت ذلك لأجهضتك"، فيقول سيوران: "لقد أصابتني هذه الكلمات بهلع ميتافيزيقي وبإهانة وجودية، وألهمتني تأليف كتاب مثالب الولادة"[12]، بينما الهادي فبحث عنها لغاية في نفسه، وبسبب نسبه المجهول.

وهنالك كثير من المواضع السردية التي يصرّح فيها الروائي دون مواربة على لسان راويه أنّ الخطاب متبنٍّ الفلسفة الوجودية الغربية، ومن تلك المواضع نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما جاء على لسان الهادي:

ـــ "لا ريب أيضا بأن شغفي بموضوع البدايات وثيق الارتباط هو أيضا بإشكالية أصلي المجهول، وأنا أعني بالبدايات تلك المنطلقات التي يمكن اعتبارها النواة المرجعية لكل شيء. لا بأس أن أشير بهذا الصدد إلى أنني انتهيت إلى الشك في وجود هذه البدايات في الأخير"[13].

وفي موضع ثانٍ يحضرنا مقتطف في السياق عينه نذكره بنصه وفصه:

ـــ "نعم. إن اهتمامي بموضوع أصل الموجودات، أعني بأصل الكون الذي نعيش فيه، أصل بني آدم، يعني بموضوع البدايات، مرتبط على الأرجح، أو على الأقل هذا ما أظنه، ببحثي الخائب والمضني... عن جذوري. من أين جئت؟ من قذف بي إلى هذا الوجود في الأرض؟ من أنا في النهاية؟"[14].

هكذا يتّضح من خلال ما جيء به من مقتطفات سردية مسلولة من رواية إبراهيم سعدي أنّ الفلسفة الوجودية منطلقها الولادة؛ فمتى ما وُلد الهادي لقيطا مجهول النسب كانت المأساة الوجودية، وكان البحث عن الأصل؛ وبالتالي عن سرّ الوجود، وبهذا فإنّ رواية (فيلا الفصول الأربعة) رواية وجودية ذات فلسفة مستلهمة من الفكر الغربي مع إسقاطها على الواقع المعيش وعلى البيئة المحلية.

وأخيرًا ننتهي إلى أنّ الخطاب الروائي عبارة عن رحلة وجوديّة؛ رحلة يبحث فيها الإنسان عن ذاته، وهويته المفقودة، وكينونته السليبة... وقد انتهت بعدميّة وعبثية، حيث لا معنى للوجود ولا غاية ترتجى منه،

وأنّ الإنسان خُلق للبحث والسعي وراء المعرفة التّامة التي لن يبلغها مهما حاول، هذه الرحلة الوجودية التي حمل أعباءها البطل اللقيط.

بعد هذه المحطة لا بد من الوقوف عند محطّة أخرى غاية في الأهمية كانت قد ارتكزت عليها الرواية؛ تتبدّى في تبني إبراهيم سعدي للفلسفة العدمية بعد ارتكازه على التيار الوجودي من خلال شخصية الهادي، وعليه نقف عند هذا العنوان:

3 .2/ الفلسفة العدمية:

اتكأت الرواية على الفلسفة العدمية؛ الخاوية من الغاية الكونية والقائلة بمجموعة من الأفكار التي لا تتوافق مع الطبيعة، و"العدمية هي تيار في الفكر الفلسفي يُنكر كل المعتقدات أو المبادئ أو العقائد سواء كانت ذات طبيعة دينية أو سياسية أو اجتماعية. وتؤكد العدمية على أن الوجود لا معنى له، ولا يوجد كيان أسمى أو خارق للطبيعة يمنح الوجود معنى... وبالتالي لا يوجد معنى للحياة، لأنها تفتقر إلى تفسير يمكن التحقق منه"[15]، وفي إحاطة مفهومية ثانية لها فـ "العدمية Nihilism المشتقة من العدم تذهب إلى أن العالم كله بما في ذلك وجود الإنسان بلا قيمة وخال من أي مغزى أو معنى حقيقي.. وهو ما يرتّب على الإنسان أن يستغل حياته من منطلق التسليم بهذه الحقيقة التي لا يمتلك درءا لها ولا الإفلات منها"[16].

أمّا عن مصدر المصطلح وانبثاقه فلنا القول بأنّه "جاء... من الكلمة اللاتينية nihil أو العدم أو لا شيء، والتي لا تعني أي شيء غير موجود فهي تظهر في فعل "إبطال أو إعدام annihilate" والذي يعني إنهاء، تدمير في أوائل القرن التاسع عشر، استخدم فريدريك جاكوبي هذا المصطلح لتمييز المثالية المتعالية سلبيًا ولم ينتشر هذا المصطلح إلا بعد أن ظهر في رواية إيفان تروجينيف 'الأب والأولاد" عام 1862 حيث إنه استخدم كلمة nihilism كي يصف مذهب العلمية الخام الذي اعتنقته إحدى شخصيات الرواية "بازاروف" الذي كان يبشر بمذهب الإنكار التام"[17].

والعدمية في الرواية طاغية جدا، حيث إنّها تبدأ من التوهان الذي تعيشه الشخصية الروائية، والعدمية هنا جسّدتها وتبنتها شخصية الهادي اللقيط؛ بطل الرواية، الذي لم تكن له هوية في يوم من الأيام، فعاش عدميا متشائما وضائعا لا حياة له وإن حدث وكانت فتكمن في الانتحار، وهو الفعل الذي أقدم عليه؛ أين رمى بنفسه في البحر دونما مقاومة للتخلص من ضبابية حياته وزيفها وشتاتها، فمن فقد هويته لا شك ستأكل الأسئلة عقله، وحتى يتخلص منها لا بد له من التخلص من حياته، ومحاولته في الانتحار باءت بالفشل فصديقه أحمد ياطو كان حاضرا يوما فأنقذه، يقول في ذلك: "لولا ياطو لأكلت الحيتان لحمي منذ حوالي أربعين سنة"[18]، لكنه ببطولته هذه لم يزد الهادي إلا ضياعا على ضياع؛ فقد جعله يبيعه روحه تماما كما صفقة فاوست؛ وفي ذلك يتحسر الهادي: "والحقيقة أنه كثيرا ما شعرت بأنني بعت نفسي له تماما مثلما باع فاوست روحه للشيطان"[19].

وهو هنا طاعن في الفكر العدمي، فالعدميون المتشائمون "يرون أنه نظرا لأن كل أفعال الإنسان عبثية وأنّ كل الآمال محكومة بالفشل فقد يكون من الأجدر الانتحار على الفور، وإلا فالحل هو اللجوء إلى الكتابة"[20].

إنّ غياب الهوية وضياعها يؤدي بالإنسان إلى البحث عنها بحثا حثيثا لأنّها كيانه وكينونته، وفي كل مرة لا يصلها ولا يستجليها يصاب بالخيبة والإحباط أكثر، ومن ذلك تتولد الخوائية، فالهوية هي الإنسان و"الهوية هي الوجود"[21]، وغيابها ينفي عن الإنسان إنسانيته وأناه، فيحس الشخص أنه لا ينتمي إلى هذا العالم الإنسي، وأنّه غريب عن بني البشر ومختلف عنهم، وهم بالموازاة ينفونه ويحتقرونه؛ كيف لا والمعيار الذي يثبت انتماءه لهم غير موجود.

وفي استحضار الشخصيات غير الشرعية في المشاهد السردية الروائية استحضار سيكولوجي، فـ "يبرز اللقيط في الرواية... كمثال تتجسد فيه بامتياز ملامح الشخصية ذات الكثافة السيكولوجية، على أن صفة اللقيط هنا لا تستند إلى حكم معياري أو أخلاقي وإنما تتجه إلى تعيين الوضع الاستثنائي الذي تعيشه بعض الشخصيات من جراء إحساسها بلا مشروعية وجودها وما ينشأ عن هذا الشعور من صراع نفسي وشعور بالذنب يظل يلاحقه وينغص عليه حياته"[22]. وهذا الشعور يتزايد بنظرات المجتمع؛ نظرات الشفقة حينا والاحتقار طورا، وقد عانى الهادي اللقيط ويلات كونه مجهول نسبٍ، حيث يتلقى رشقا كلاميا كلّما أتيحت الفرصة لغيره، فحين مات صديقه أحمد ياطو وقرر أن يلقي كلمة تأبينية كونه أقرب الناس إليه وقتذاك لاقى الأمر استنكارا واستهجانا من بعضهم، وقد بلغ الاستهجان بأحدهم إلى الحد الذي جعله يصيح وسط الجمع بقوله:

"إذا خاطبكم اللقطاء قولوا سلاما، قال لي.

هل يعرفني؟ من يكون؟ هل حدثه أحد عني؟ هل هي الصدفة، لا غير؟ وكيف يكون مجرد صدفة وهو لم يقل "إذا خاطبكم الجاهلون""[23].

إذًا لا قيمة للوجود ولا معنى للحياة إن فقدت الذات البشرية هويتها التي تعطى لها منذ الولادة، فالولادة هي المنعرج الأساس الذي يحدد حياة الإنسان ووجوده، والهادي افتقد إلى هذه الهوية، فبعد رحلة وجودية ابتدأها بالبحث عن قيمة الوجود انطلاقا من أناه ها هو يبلغ مبلغا من العدمية، فرغم التناقض بين الفلسفتين إلا أنّ الروائي زاوج بينهما، وجعل عمله الإبداعي يقوم عليهما، بل وجعل شخصية ورقية واحدة تحملها بأعبائها وبتناقضاتها، وما اتكاء الروائي عليها – الوجودية والعدمية – إلا من باب الترميز، الترميز لهذا السعي اللامجدي للفرد الجزائري، ولهذه الحالات العدمية التوهانية التي طالته منذ زمن؛ هذا الإنسان الذي اغترب في كنف وطنه، ونُفي تهميشا لكينونته وتغييبا لدوره.

ومن مزايا المزج بين الحقلين استفزاز عقل القارئ النموذجي، وجعله يتلقى أحداث الرواية بغير النمطية المعهودة، كما ويفك رموز الخيط السردي بمشقة فكرية تبعث على المتعة والاستئناس القرائي الفكري الفني، كما وأنه يجعل القارئ يستزيد منها فكريا وثقافيا، فيخرج من كل أثر روائي فلسفي قرأه بوعي غير الذي قبله.

الخاتمة والنتائج:

نصل أخيرا – بعد هذه الرحلة التنظيرية الإجرائية التي مسّت جانبا جد هام من خطابات إبراهيم سعدي الروائية - إلى جملة من النتائج والاستخلاصات المحورية التي نعمل على تلخيصها وتبسيطها في النقاط الآتية:

_ تتحاور الحقول وتتضافر فيما بينها تحاورا إيجابيا وتضافرا ولّادا، حيث يتكئ هذا الحقل على مقومات حقل ثانٍ وهكذا، وأكثر هذه الحقول تحاضنا وتعانقا وتكاتفا؛ الحقل الأدبي بالحقل الفلسفي، وفي الرواية نخصص جنس الرواية بفضفاضيته التي تتيح له الأخذ من كل حقل بطرف، تتيح للروائي أن يرتدي بردة الفيلسوف ليوصل الأبعاد والنظريات الفلسفية إلى شرائح أعرض، فيبني بذلك منجزه التخييلي على المبادئ الميتافيزيقية، وعلى النظريات والرؤى الفلسفية المعمّقة.

_ تستحيل الكتابة الروائية الفلسفية على غير المتخصص في المجالين، فغير العارف بحدود الفلسفة وأغوارها سيعجز عن استنطاقها والاتكاء عليها وتذويبها في متنه الحكائي، فيدفعه ذلك إلى العزوف عنها كحلّ أصوب، أو الدنو منها بتهوّر الجهّال وبالتالي الإصابة بالخيبة الكتابية، فلا هو يصبح روائيا متفلسفا ولا هو يبقي على نفسه مبدعًا روائيًا فحسب، إنها لا تتعدى كونها جناية على النفس والإلقاء بها في هاوية العجز، ولفت الأقلام النقدية إليها.

_ مارس إبراهيم سعدي الفلسفة أكاديميا، ومارسها ثانية إبداعيا بكلّ مُكنة واقتدار، فكانت تجاربه الروائية مشاهدا تخييلية ممزوجة بالفكر الفلسفي، تعالج مشكلات الراهن المختلفة والمتأزمة، فللفلسفة القدرة على التفاعل مع الأدب الروائي تفاعلا كاملا؛ حيث تظهر نظرياتها على مستوى الخيط السردي بشكل سلس وبصورة مكتملة الجمالية.

_ اتّكأت الرواية على الفلسفة الوجودية التي تقول ببحث الإنسان الحثيث والدائم عن سر البدايات، وهو ما ارتكز عليه الهادي بطل الرواية الذي راح يبحث تماما عما تبحث عنه الفلسفة الوجودية؛ أي البحث عن أصله ونسبه الأوّل، لكنه انتهى إلى شكه المطلق في الوجود بعامة وفي كل الموجودات مرتكزا على المنهج الشكي الديكارتي.

_ وجدت الفلسفة العدمية الخوائية التشاؤمية... بمختلف تسمياتها مكانا وسيعًا لها في الحيز الروائي (فيلا الفصول الأربعة) من خلال الشخصية الروائية؛ وتخصيصا شخصية اللقيط الفاقد لذاته وهويته والباحث دوما عن انتمائه وكينونته، شخصية اللقيط التي تعبّر عن أزمة سيكولوجية ذاتية، كما أنّ لها صلاحية تخطي ذلك

للتعبير عن الأزمة العامة المتمثلة في فكرة الاغتراب الذي يطال الأوطان، فما الشخصية إلا جزء من الوطن، وهذا الجزء من ذلك الكل؛ وبالتالي فإنّه في الغالب يعبّر عنه ويرمز له.

_ كانت لفلسفة إميل سيوران ذلك التأثير الواضح الجلي في توجيه فكر إبراهيم سعدي، حيث نجده قد استرفد مرتكزاتها التي تمثّلتها كتاباته، من بينها (مثالب الولادة) الكتاب الذي ألّفه بعد فقدانه الشغف الحياتي، وبلوغه درجات عالية من اليأس والإحباط، فإن عارض إميل سيوران فكرة الإنجاب لأنها ستصل إلى نتيجة حتمية واحدة ألا وهي التضحية بأبناء جدد في عالم خوائي لا يمنح الإنسانَ غير التوهان، فقد عارض الهادي في الرواية قيد الدراسة الفكرة عينها، فرأى ألا يتزوج ليتفادى إنجاب ضحايا تعيش شيئا مماثلا لما عاشه، فإن ضاعت منه هويته وهو اللقيط فأنّى له منحها وضمانها لأبنائه؟ إنهم حتما لن يتجاوزوا كونهم لقطاء أبناء لقيط، سيكونون مجرد تائهين؛ لا شرعية لهم في هذا الوجود.

هوامش:

[1] محمد شفيق شيا، في الأدب الفلسفي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط 1، 2009، ص 105.

[2] بيار ماشيري، بم يفكر الأدب (تطبيقات في الفلسفة الأدبية)، تر: جوزيف شريم، المنظمة العربية للنشر، البصرة، ط 1، 2009، ص 25.

[3] أيريس مردوخ، بريان ماغي، نزهة فلسفية في غابة الأدب، تر: لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد، ط 1، 2018، ص 10.

[4] محمد شفيق شيا، في الأدب الفلسفي، ص، 25.

[5] زياد أبو لبن، زهير توفيق، الرواية والفلسفة، جمعية النقاد الأردنيين في عمان، الأردن، د ط، 2020، ص 35.

[6] أيريس مردوخ، بريان ماغي، نزهة فلسفية، ص 21

[7] ناتالي الخوري غريب، الرواية الفلسفية وسيطًا بين الفكر المجرّد وفنّ الحياة (كيف نستثمر الرواية الفلسفية تربويًّا واجتماعيًّ وتبسيطًا للفلسفة؟)، نشر: 29 مارس 2021، شوهد: 02 أوت 2023، على الساعة: 20:46، https://mana.net/14339/

[8] محمد شودب، قراءة في كتاب مثالب الولادة، نشر: 28 مارس 2019، شوهد: 04 أوت 2023، على الساعة: 16:11، https://stor.com/

[9] إميل سيوران، مثالب الولادة، تر: آدم فتحي، منشورات الجمل، بغداد، ط 1، 2015، ص 11.

[10] إبراهيم سعدي، فيلا الفصول الأربعة، منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2019، ص 52.

[11] الكهف/ 46.

[12] محمد شودب، قراءة في كتاب مثالب الولادة، https://stor.com/

[13] الرواية، ص 22.

[14] المصدر نفسه، ص 22.

[15] وائل الشيمي، الفلسفة العدمية (الحياة ليس لها معنى)، نشر: 01 فيفري 2023، شوهد: 03 أوت 2023، على الساعة: 14:15، https://manthoor.com/nihilistic-philosophy/

[16]علي محمد اليوسف، العدم من منظور فلسفي، صحيفة المثقف، شوهد: 03 أوت 2023، على الساعة: 20:43، https://www.almothaqaf.com

[17]دلال العكيلي، العدمية وفكرة أن العالم بلا معنى، نشر: 25 ماي 2019، شوهد: 05 أوت 2023، على الساعة: 17:07، https://www.google.com/amp/s/amp.annabaa.org/arabic/ethics/19379

[18]الرواية، ص 100.

[19]المصدر نفسه، ص 29.

[20]نانسي هيوستن، أساتذة اليأس (النزعة العدمية في الأدب الأوروبي)، تر: وليد السويركي، دار كلمة، أبو ظبي، ط 1، 2012، ص 17.

[21]حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 2012، ص 24.

[22]حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء – الزمن – الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1990، ص 303

[23]الرواية ص 148.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع، مؤسسة الرسالة ناشرون للنشر والتوزيع، بيروت، د ط، دت.

أولا/ المصادر:

1. إبراهيم سعدي، فيلا الفصول الأربعة، منشورات ضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2019.
2. إميل سيوران، مثالب الولادة، تر: آدم فتحي، منشورات الجمل، بغداد، ط 1، 2015.

ثانيا/ المراجع:

3. أيريس مردوخ، بريان ماغي، نزهة فلسفية في غابة الأدب، تر: لطفية الدليمي، دار المدى، بغداد، ط 1، 2018.
4. بيار ماشيري، بم يفكر الأدب تطبيقات في الفلسفة الأدبية، تر: جوزيف شريم، المنظمة العربية للنشر، البصرة، ط 1، 2009.
5. حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء – الزمن – الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1، 1990.
6. حسن حنفي، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 2012.
7. زياد أبو لبن، زهير توفيق، الرواية والفلسفة، جمعية النقاد الأردنيين في عمان، الأردن، د ط، 2020.
8. محمد شفيق شيا، في الأدب الفلسفي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط 1، 2009.
9. نانسي هيوستن، أساتذة اليأس (النزعة العدمية في الأدب الأوروبي)، تر: وليد السويركي، دار كلمة، أبو ظبي، ط 1، 2012.

ثالثا/ المواقع الإلكترونية:

10. دلال العكيلي، العدمية وفكرة أن العالم بلا معنى، https://www.google.com/amp/s/amp.annabaa.org/arabic/ethics/19379
11. علي محمد اليوسف، العدم من منظور فلسفي، صحيفة المثقف، https://www.almothaqaf.com

12. محمد شودب، قراءة في كتاب مثالب الولادة، https://stor.com/
13. ناتالي الخوري غريب، الرواية الفلسفيّة وسيطًا بين الفكر المجرّد وفنّ الحياة (كيف نستثمر الرواية الفلسفيّة تربويًّا واجتماعيًّ وتبسيطًا للفلسفة؟)، https://mana.net/14339/
14. وائل الشيمي، الفلسفة العدمية (الحياة ليس لها معنى)، https://manthoor.com/nihilistic-philosophy/